(٢٢)
النديم والإصلاح الاجتماعى

لقد سبقت دعوة النديم للإصلاح الاجتماعى انشغاله بأحداث البلاد السياسية ثم مزج بينهما وسارا جنبًا إلى جنب حيث انشغل بما أصاب قومه من جهل وانحلال وانهماك فى الرذائل والموبقات وحاول أن ينبههم إلى مضارها ويزيل الخرافات والجهل المطبق عليهم معتقدًا أن الوطن لا يمكنه التخلص من السيادة الأجنبية ما دام الجهل معششًا فى عقول أبنائه والخرافات مسيطرة على أفكارهم مؤثرة على طموحهم والرذائل والموبقات محطمة لمثلهم وعقائدهم فكتب المقالات المطولة والقصص الرمزية والمحاورات التى كتبت بالعامية فى صحفة ليفهمها غالبية الشعب صور فيها الأحوال الاجتماعية

والسياسية والثقافية التى تعيشها البلاد وما فيها من عيوب، كما كانت له الخطب الإصلاحية على منابر المساجد وفى طرق المدن والقرى والنجوع حيث قام بحملاته المكثفة على البدع وأعمال الشعوذة والعادات التى لا تدخل أى بلد إلا وتُخرج منه التمدن والعلوم مطالبًا أبناء وطنه بالسير خلف العلوم بدلاً من السير وراء الخرافات .

وفيما يلى نعرض لذلك .

انتابت المجتمع المصرى آفات عديدة بعضها تراكم بمرور الزمان والآخر جديد على المجتمع المصرى، ولما كان لهذه الآفات أكبر الأثر فى تأخر الناس وتدهور أحوالهم وعدم مسايرتهم للتقدم فقد تحدث النديم عنها مبينًا مضارها فذكر منها أساليب مشايخ الطرق فى الموالد والشعوذة والمشعوذين والخرافات والاحتيال والكذب والبدع التى تسمم بها النساء العجائز أفكار الشابات مثل الندب والصراخ خلف الميت والجلوس على المقابر والزار وبدعة شحذ الشحاذ ثم تحدث عن خطورة الاندفاع فى تقليد الأوربيين وانتشار الخمر والقمار والدعارة، وفيما يلى نعرض لما ذكره النديم عن كل آفة من هذه الآفات :

١ - انتقد النديم الأساليب التى يتبعها مشايخ الطرق فى الموالد مما يسىء إلى الدين وهو منها براء، وينسبون إلى الأولياء الكثير

من الكذب والبهتان ويعجب لما يدعيه هؤلاء من علم بما أنزله الله وأن فى استطاعتهم دفع المصائب ، وجلب النوائب بقدرتهم ويرميهم بالكفر والفسوق موضحًا أن وظيفة رجال الدين ما هى إلا بذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعليم مكارم الأخلاق مؤكدًا أن الطريق الصحيح هو التمسك بالقرآن والسنة . كما ندد بعادات أهل الطرق فى الموالد التى هى أبعد ما تكون عن الدين مثل الطبل والزمر والرقص وما يتخلل ذلك من الأمور التى تخالف الآداب الشرعية فقال : " هلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة الشنيعة ، وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم . ولما كان نقد النديم لهؤلاء بقصد الإصلاح فقد أوضح لهم الطريق الذى يجب أن يتبعوه من أجل إظهار الدين بصورته الحقيقية .

كما ناشد أولى الأمر بإصلاح الطرق وتنقيتها من البدع والأهواء حتى تكون من عوامل تأليف القلوب وتوحيد الكلمة .

ومما سبق يتضح أن النديم استهدف من نقده لأساليب مشايخ الطرق أن يسلكوا النهج القويم ويسيروا على ما تأمر به الشريعة الإسلامية ويبتعدوا عما يخالف القرآن والسنة ، كما استهدف أيضًا تقدم الشعب بتوضيح الأضرار المترتبة على هذه العادات

وضرورة تجنبها حتى تسير البلاد نحو التقدم .

٢- عن الشعوذة والمشعوذين دعا النديم الناس إلى الحذر من هؤلاء والانطلاق فى أثر الدول المتقدمة ، ومعرفة أساليب تفكير شعوبها وحياتهم ، وطالب المشتغلين بالشعوذة بالكف عن تضليل الناس والبحث عن عمل آخر مثل الصناعة حتى يفيدوا بها أنفسهم ووطنهم ، وحذرهم من أنه سيكشف أمرهم للناس بقوله : "مهلاً أيها المشعوذ فقد جاءك التنكيت والتبكيت يظهر مخباتك وما أنت عليه من الإضلال والإفك ، فما أضرنا إلا شعوذتك ، فلو تعلمت صنعة غير هذه لكانت أشرف لك ، ألم تدرك أن الصناعة عليها إحياء الوطن وعمار البلاد" .

كما حذر الناس من الالتجاء إلى هؤلاء المشعوذين فى حل مشكلاتهم أو الاستماع لأقوالهم لأنهم يضلون عقولهم بأفعال قبيحة ويسلبون نقودهم وضرب مثلاً على ذلك فقال إن رجلاً مقيمًا فى ميت غمر " حفر بركة وأشاع أن ماءها يشفى من كل داء فهرع إليه الناس من كل بلد حتى ضاقت ميت غمر بالوفود وكان يعطى الإبريق بعشرة قروش ، ويأخذ الخادم عشرة قروش وعشرة قروش أخرى ثمن البن ، ونذر الشيخ عشرة قروش يظهر التعفف . ويقول إنه يعالج الناس ابتغاء مرضاة الله ! فهل بمثل هذه الجهالة نضارع الأمم المتمدنة ؟" . كما ضرب مثلاً آخر بما

حدث فى محطة سكة حديد دسوق حينما أشيع أن بالقطار امرأة تدعى الولاية، فازدحم الناس عليها بعضهم يقبلون القطار الذى تركبه، والبعض الآخر يقبل يدها فتقول لهم ما يردده مدعو الولاية: "مستورة . . سالكة . . ؟ أشيا معدن . . قدامك خضرة ووراك خضرة . . الله يحنن عليك . . ارمى حمولك على المتولى . . ربنا يجازى أولاد الحرام".

لقد هاجم النديم هؤلاء الذين يتخذون من الدين ستارًا لنشر الجهل والمعتقدات الفاسدة - مستغلين سذاجة بعض الناس - بأن لهم سلطانًا فعليًا خارقًا وأنهم الواسطة بين الإنسان وخالقه وأن لهم من الخوارق المعجزة والصفات المذهلة ما يجعل طلباتهم مجابة، مبينًا فساد أقوالهم وأن الدين منها براء . وعن مدعى الطب الذين يعالجون المرض بالتمائم والتعاويذ حذر النديم مواطنيه من هؤلاء حفاظًا على أرواح أبنائهم وضرب لهم مثلا على سوء أفعالهم فقال : " استدعى بعض شبابنا دجالاً من ميت غمر ليداوى له ولدًا هو ثمرة فؤاده وقرة عينه، فلما أقبل ذلك الدجال أخذ يعالج الولد تارة بكتابة التمائم وأخرى بالتراكيب القتالة (ويسميها العقاقير إيهامًا بأنه طبيب)، فلم يلبث الولد أيامًا قلائل حتى التحق بساكن القبور. لقد ناشد النديم أولى الأمر بمحاربة الأباطيل والخزعبلات التى أخرت البلاد "وقطع

دابر مدعى الطب وإبعاد من تعثر عليه من المشعوذين المتلفين للعقول والأجسام".

وفى مقال للنديم عما يسببه هؤلاء الدجالون المشعوذون من أخطار على المجتمع ذكر أنه بعد دعوته إلى إنشاء المدارس فى أثناء تجواله بزفتى ومية غمر خرج من هؤلاء رجل يمر فى الطرق والمجامع يقول : "المدارس من محدثات الأمور وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار". ثم أخذ يخوف الناس من المدارس بقوله إنها تزيغ العقائد وتفسد الأخلاق" فتبعه خلق كثير من أوباش زفتى ورعاعها" .

وقد ناشد النديم هؤلاء الناس بالكف عن الخرافات بقوله : " كفاكم أنكم تتبعتم الخرافات حتى فسدت أخلاقكم وتكدرت أفكاركم وصرتم لا تصلحون لإدارة أموركم إلا بعد طهارة أخلاقكم التى أفسدها التخريف .

٣- وعن الاحتيال والكذب والتخريف وتخريب عقول الناس وإفساد أخلاقهم وتزوير أدبهم الشعبى الأصيل ومحتواه، هاجم النديم مروجى هذه الآفات فكتب تحت عنوان تخريفة "الجنون فنون" مقالاً قال فيه إن أحد المحتالين جلس على قهوة وراح يقرأ تخاريف سماها قصة عنترة فاجتمع إليه عدد من الرعاع والهمج فلما رآهم منصتين إليه ذكر عبارات نسبها إلى

عنترة، وظل يتفنن فى الكذب حتى الفجر وأخيراً قال وبينما هم فى قتال ونزال وقد انكشف الغبار عن أسر عنترة وسنخلصه فى الليلة المقبلة. فقال له أحد المجانين لا بد أن تخلصه الآن وخذ عشرة جنيهات فأبى المحتال وسكت عن الكلام فشتمه المجنون، وعلت أصواتهما بالقبائح وآل الأمر إلى الضرب والإهانة ثم ذهب المجنون وقد تذكر أن عنده قصة عنترة ولكنه أمى لا يقرأ فقصد بيت ولده وأيقظه من النوم وهو يبكى وطلب من ابنه أن يحضر الكتاب وأن يخلص عنترة من الأسر وإلا قتل نفسه ولما حاول الابن إقناع أبيه بأن هذه حكاية مكذوبة وقصة كلها تخريف وما عنترة إلا عبد أسود أخذ شهرة بما صنعه من قتل بعض الناس بلا حق- قام الرجل وضرب ابنه بعصاه حتى سال دمه، وطرده من بيته انتقامًا منه بأنه شتم عنترة فخرج الابن يسب الجهل وأهله وقال: "لا شك أن الجنون فنون".

٤- وكما حذر النديم الرجال والأولاد من البدع ومفاسدها فقد حذر الشابات من النساء بالابتعاد عن الخرافات التى يسمم بها العجائز أفكارهن من حيث الندب والصراخ خلف الميت، وذكرهن بأن ذلك مخالف للشرع والدين فقال: "لو علمن علم اليقين أن الولولة والندب خلف الميت لا يجوزان شرعًا لما حصل منهن ذلك ولما خرجن خلف الميت صارخات متهتكات صابغات

وجوههن وأيديهن بالنيلة أو الطين بل كن يمتثلن لأمر الدين " .
كما هاجم جلوس النساء على المقابر وتجمعهن كل يوم خميس فى الأعياد والمواسم للذهاب إليها واتخاذ ذلك فرصة للتزين والتبرج .

وانتقد النديم " الزار " الذى تقوم به بعض النساء بحجة أن الشياطين يركبونهن متخذين هيئة سلطان أو ملك ، وكل من أصيبت منهن بمرض عصبى أو فتور جسمانى يوصف لها أن تحضر " القودية " لتبخرها ببخور مخصوص " وتستنطق الشيخ الذى حل فى زعمهن على جسدها وإذا يئست من شفائها تشير عليها بأن تستعد للزار وأن تجهز ما يلزم له من مأكولات ومشروبات والحلى والحلل كالثياب والأقراط والأساور والجلاجل " وقد ضرب النديم مثلاً على هذه البدعة منددًا بها فقال : حدثنى بعض من أثق به بتخريفة جرت بمنزله فقال : " بينما كان بمنزلى فى أحد الأيام بعض النساء وإذا بجارية سوداء دخلت عليهن ومعها امرأتان فقامت النساء إجلالاً لها وأجلسنها فى صدر مجلسهن ، وبعد تناول الطعام بقليل بدأت المرأتان تغنيان وتطبلان ، فأخذت الجارية فى الانتفاض ، ثم قامت من وسط المجلس وصاحت بصوت مزعج : " السلام عليكم فأجابها كل من بالمجلس(وعليكم السلام سيدنا الشيخ) ثم

صارت كل واحدة تحييه بتحية غير تحية الأخرى، وقد حدد الشيخ طلباته " بإحضار ديك وفرخة سوداء من غير إشارة " .

وقد ندد النديم بما سمعه واعتبره بدعة قبيحة ميسئة إلى المجتمع وإلى سمعة أفراده وطالب بمدرسة لتهذيب البنات حتى لا يسلكن طريق الأمهات، كما انتقد النديم بدعة " شحذ الشحاذ " التى تفعلها بعض النساء يوم عاشوراء حيث يخرجن فى هذا اليوم وكل منهن تحمل طفلاً صغيراً وقد بذلن عفافهن وأبرزن نهودهن حتى إذا ما التقين بفتى أو برجل قابلنه بالضحك والقهقهة قائلات " شحذ الشحاذ " ليعطيهن درهمًا فيأخذنه منه على زعم منهن أن هذا الدرهم يمد أجل الطفل إلى أمد مديد، ويمنع عنه الموت . وقد اعتبر النديم هذا العمل علة من أكبر العلل التى أصابت المجتمع، وحذر من أنه لا يمكن أن نرتقى إلى سلم المدنية إلا إذا طهرنا بيوتنا من هذه العقائد الفاسدة " .

كما ندد بالنساء العجائز اللائى يلقن الأبناء أصنافًا من التخريف فذكر أن رجلاً أخذ أولاده ليشترى لهم طرابيش فقابله أحد أصحابه ولما عاد إلى بيته وأخبر زوجته بذلك قالت له : لا بد أن يكون هذا الرجل حسدكم . ثم ألزمته باستحضار شيء من أثر صاحبه لتبخر منه الأولاد فامتثل الزوج للأمر، وذهب إلى صاحبه وأحضر منديله بحجة شراء مثله ثم أعاده إليه وأطرافه مقصوصة .

لقد نصح النديم الناس بالابتعاد عن مثل هذه الخرافات والعادات القبيحة لأنها ما حلت ببلد إلا وأخرجت منه التمدن وأبعدت عنه العلوم وأصبح مقامًا للأجنبى، وناشدهم بالسعى خلف العلم والمعرفة فقال : " يأيها الوطنيون لم لا تجدون فى السعى خلف المعارف، وقد ظهرت لكم ثمراتها لتضارعوا باقى الأمم فى التمدن الذى لا يكون إلا باجتناب الخرافات ؟ " .

٥- بين النديم لمواطنيه مضار بعض العادات وأوضح لهم أنها تؤذى ولا تنفع فتحدث عن الإسراف الذى يحدث عند الوفاة حيث تقام السرادقات فقال إن هذه الأمور تصرف فى غير سبيلها فربما كان للفقيد أطفال يئنون جوعًا ويرجون مرحمة ويحتاجون أن تصرف عليهم هذه الأموال. كما تحدث عما يحدث داخل السرادق حيث يأخذ لفيف من المعزين يغتابون سواهم والبعض منهم جلوس يراءون الناس بكلامهم الذى يلوكه لسانهم ويتعجب من ذلك بقوله : "وأى فائدة عادت للفقيد؟"، ثم يدعو الله أن يرشد عباده الذين ضلوا السبيل.

وعن عادة " الجهاز أو الشوار " قال النديم إنها عادة تخلق بها الناس، وتكون فى معظم الأحيان سببًا فى تخريب البيوت العامرة، كما أنها تنزل بالفقراء إلى الحضيض حيث يهرع الناس لابتياع كل رخيص وغال لإتمام هذه العادة وانتقد ذلك بقوله :

"يحتمل أن يكون الزوج فقيراً ولا يقدر أن يسكن فى غرفة تلم هذه الأمتعة التى تهدمها كلمة الطلاق» .

٦- وعن علة الإطلاق وإسراف المسلمين فيها وفى التزوج بأكثر من واحدة طالب النديم الحكومة ورجال الشرع بوضع حد له وأن يكون للطلاق نظام حتى لا تتشرد الأسر ويتحطم الأبناء وحتى لا يساء فهم الدين وطالب من يتدخلون لفض النزاع فى مثل هذه الحالات أن يكون تداخلهم للخير والإصلاح وألا يحكموا على شىء قبل التروى حتى لا تشتعل نار الحقد بين العائلات بل يقومون بإصلاح ذات البين درءًا للمفاسد المترتبة على الخلاف والخصام لأن أكثر النزاع بين الناس يكون سببًا عن وشايات أرباب المفاسد وسعايات سيئى المقاصد .

٧- حذر النديم أبناء وطنه من الاتكال والتكاسل والجبن فى مواجهة المواقف والتنصل من المسئولية باعتبار كل شىء يخضع للقضاء والقدر وضرب لهم مثلاً على ذلك فذكر فى مقال له بعنوان "نهاية البلادة - كلها عيشة وآخرها الموت" - وتمنى ألا يكون من بين المصريين من ينطبق عليه هذا المثل - فقال : إن رجلاً ذهب إلى قرية فاستضافه شيخها ولما أقبل الليل ونام الرجل أحس بسارق يحاول خلع باب منزل الشيخ فأيقظه مضيفه وقال له إن بالباب لصا يحاول خلع الباب وسرقة المنزل

فلم يهتم صاحب البيت بل قال لصاحبه: "إللى على الجبين لازم تراه العين. والمقدر كائن ولا بد من إنفاذه". ولما طلب منه صاحبه الاستعداد للمدافعة عن بيته ونفسه وأهله وماله رفض وقال له: "توكل على سيدك ونم" وجبن عن الوقوف فى وجه اللص فقام صاحبه وأمسك اللص وكتفه ومع ذلك لم يأبه صاحب البيت بل نام وقال لصاحبه: "كلها عيشة وآخرها الموت".

لقد اتهم النديم صاحب البيت بالغباء وعدم معرفة قدر نفسه وشرف بيته وطالب أمثاله بالنظر إلى الإفرنج الذين يهاجرون من بلادهم ويتحملون المشقات لكسب الدرهم وذكره بأن المدنية والتقدم لم تحصل عليها البلاد عن طريق الجبن والكسل بل ببذل الجهد والعمل.

٨- وعن الخرافات الشائعة فى ذلك الوقت باسم "الاستخارة" و"المندل" تحدث النديم عن إقبال الناس عليهما فذكر أن أحد الدجالين حضر من المغرب مدعيًا أنه عليم بالاستخارة والخرافة الذائعة فى مصر باسم "المندل" فهب الناس قائمين إجلالاً له، وذهب إليه الكثيرون ليكتب لهم خرافة من أساطير الأولين، فكانوا يأخذونها فرحين وألسنتهم تقول: (خذ من عبد الله وتوكل على الله). وقد نصح النديم الناس بعدم الاعتقاد

فى هذه الخرافات التى تعطل الفكر والإرادة لأنها لو كانت صادقة ما كان فى الدنيا غامض ولا مخبأ ولاعتمدت عليها المحاكم فى كشف السرقات والجناة، ولصار أصحاب هذه الخرافات من أغنى أغنياء الدنيا .

وقد ندب النديم الوطن لوجود مثل هذه البدع فيه فقال : " هل توجد مدنية على جانب من الجهل مثل مدنيتنا وعقائدنا الواهية؟ يقوم الغربى من رقاده باكرًا ويفتح عينيه على قوته العاملة، ويقوم الشرقى صحوة النهار إلى مشعوذ سخيف ينظر فى مستقبله فينحرف هذا حتى يشبع ذاك مالاً؟!» لقد كان هدف النديم من نقد مجتمعه الإصلاح وتهذيب الشعب وتقدم البلاد فكان المصرى الصادق الذى لا يتملق أبناء وطنه أو يداهن الحكام بل يبصر الناس بعيوبهم، ويعرض عليهم مشكلاتهم ويشاركهم فى البحث عن أقصر الطرق لعلاجها .

٩- وكما حذر النديم أبناء وطنه من العادات والتقاليد البالية السائدة بينهم، حذرهم من الاندفاع فى تقليد الأوروبيين بما لا يتفق وواقع الحياة الاجتماعية للشعب المصرى حيث بهرت المدنية الأوروبية البعض فاندفعوا لتقليدها من غير هدى وظنوا أن كل ما عليه الغربيون من الأخلاق والعادات هو سبب هذه النهضة الكبيرة التى هم عليها، وجهلوا أن لكل أمة مقومات وعادات إن

هى خرجت عليها كانت عرضة للفشل والانحطاط فكتب مقالاً بعنوان "فصل فى الأخلاق والعادات" حذر فيه أبناء وطنه من عواقب محاكاة الآخرين دون تروٍ فقال: "ينبغى لمن يغير عادته بعادة الغير أن ينظر فى أصل عادته وفوائدها ومضارها ثم فى عادة الغير كذلك فإن رأى حسن عادته وأنها من لوازم حفظ المظهر أو الثروة أو الوطنية أو الجنسية أو اللغة أو الدين لزم الإبقاء عليها، فإن انتقل من عادته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد أسلم ذاته إلى من انتقل لعادته بلا حرب، ويعز عليه الرجوع لجنسيته ووطنيته وخصائص أمته" كما هاجم النديم المتفرنجين على صفحات جرائده، ففى مقال له بعنوان "عربى تفرنج" تحدث عن شاب من أبناء الفلاحين سماه "زعيط" أرسلته الحكومة إلى أوروبا ليكمل تعليمه بعد انتهائه من الدراسة بالمرحلة الابتدائية، وبعد أن أتم دراسته عاد إلى بلاده متبرمًا بعادات قومه وأخلاقياتهم، ولم يكتف بذلك بل أخذ يذم أهله وبلاده كما نسى لغته العربية.

وصف النديم هذا الشاب بأنه لم يتهذب صغيراً ولم يعرف حقوق وطنه ولا حق لغته ولا قدر شرف الأمة، ونعته باللئيم الجاهل بحق الوطن.

كما انتقد النديم تقليد الناس لبعض الأفراد دون النظر إلى

المنفعة التى ستعود عليهم من ذلك فقال تحت عنوان " غفلة التقليد " : " إن رجلاً بنى بيتًا وزخرفه وملأه بالأثاث والمتاع ثم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة ، وكان فى جملة المدعوين أحد النبهاء ، ولما انتهى بهم المجلس أخذ يقص عليهم مقدار ما صرفه فى بناء هذا البيت وأنه اشترى خزانة كتب ، ووضع بها كتبًا بمائة جنيه ، ولما سئل عن الكتب التى يفضل قراءتها قال إنه لا يفضل منها شيئًا ولكنه دخل بيت الشيخ فلان والسيد فلان والحاج فلان والهمام فلان والأمير فلان فرأى فى مضيفة كل منهم خزانة بها كتب وعليها ستارة خضراء وبجانبها منشة من الريش والخادم كل يوم ينفضها ويمسح الزجاج والخزانة فأحس أن هذا طراز جديد فى بناء البيوت فرتب مضيفته مثلهم ليكون فى صف المتمدنين فلعن النبيه الجهل وسب التقليد وقال : لقد أصبح الكل نائمًا فى غفلة التقليد .

١٠- ولما انتشرت أماكن بيع الخمور انتشارًا كبيرًا فى البلاد وكثرت أماكن اللهو وزادت أماكن دور القمار حتى وصلت فى القاهرة وحدها من ٣١٦ إلى ٧٤٧٥ دارًا أى بزيادة ٧١٥٩ دارًا فى السنوات الأولى من عهد الاحتلال ، فقد حذر النديم أبناء وطنه من ارتياد هذه الأماكن مصورًا أحوال من يدخلونها بأنهم يخسرون صحتهم ويفقدون أموالهم ، موضحًا المساوئ والمفاسد

المترتبة على ذلك واستند إلى موقف الدين الذى حرم الخمر بقوله تعالى "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير"، فقال: "اجتمع فى الخمر من المفاسد ما لا يجتمع فى غيرها من البواعث، وكل مسكر خمر وكل خمر حرام" كما اتهم الإنجليز بالتشجيع على إقامة هذه الأماكن حتى تتفتت الأسر وتنتشر الجرائم وينحل الشعب المصرى، وانتقد النديم تفاخر بعض الشبان بأنهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر حتى يكونوا شبانًا عصريين وصور حالتهم بعد دخولهم الحانات فقال: "إنهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار، وقد ذهبت عقولهم وطاش صوابهم وهم بين نعيق وصفير وقهقهة وسباب يخترقون الأزقات لمعاكسة الفتيات، ويظهرون من شقشقة اللسان الأقاويل البالية التى لا يمحوها إلا عقاب شديد". كما ذكر أن شارب الخمر يغيب عقله فيتكلم بما به يكفر، وربما طلق زوجته وهو لا يشعر. كما وصف أحوال من يخسرون أموالهم فى لعب القمار بالحزن والغيظ ونصح العقلاء بعدم مسايرة هؤلاء الجهلاء فى مفاسدهم حتى لا يسيئوا إلى أنفسهم، ودعا الذين يفقدون أموالهم على موائد القمار أن يوفروها للعمل فى التجارة أو الصناعة وذكرهم بأن الحرية ما هى إلا الوقوف عند الحدود والمطالبة بالحقوق، وأنها من أكبر دعائم العمران لو أن الناس

فهموا معناها وأحسنوا استعمالها ، ثم ذكر أن هذا لا ينطبق على المزدحمين على أبواب محال البيرة والخمارات وبيوت العاهرات الذين اتخذوا من الحرية الشخصية طريقًا لفعل المنكر واعتبرهم الفريق المفسد لعقله وماله والذى لا يعرف الضار من النافع حيث إن منهم من ينفق فى الخمارة الريال أو الجنيه كل ليلة وأولاده بلا عشاء وربما أنفقه من كسب زوجته أو مسروقًا من مال أبيه ، وطالب بالحجر على هؤلاء السفهاء والبعد عن هذه الرذائل والتحلى بدواعى الكمال والانتباه من غفلة الضياع مالاً وذاتًا .

وعندما اعترض البعض على دعوة النديم بحجة أن ذلك يؤدى إلى نقص ميزانية الجمارك مائتى ألف جنيه وإفلاس عشرين ألف تاجر أوربى رد عليم النديم بأن قولهم هذا يدل على قلة الإدراك وضعف العقل ، وأن الخديو والحكومة لا يهمهم إلا ما فيه مصلحة البلاد وتحلى أبنائها بالكمال والفضيلة وإبعادهم عن السقوط فى النقائص والرذيلة ، وأن من الأولى بنا أن نحول بين شبابنا ومفسدات عقولهم وأموالهم لنحول بينهم وبين الجنون والإفلاس ، كما صور النديم فى محاورة له بعنوان " حنيفة ولطيفة " أن الانهماك فى شرب الخمر وغيرها من المكيفات يؤدى إلى ضياع الأموال وترك الأولاد " عرايا وجعانين وإنه ترك حنيفة الخمر وفر اثنى عشر جنيهًا كل شهر واشترى أطيان الميرى

اللى الفدان بعشرة جنيهات " . وفى مقال للنديم بعنوان " سهرة الأنطاع' تحدث عما تسببه عادة الكيف من تبلد الفكر والجبن وسوء الأخلاق ، وطالب أبناء الوطن بالتفكير فيما يساعد على تقدم البلاد والنظر إلى أحوال الأمم وسير العقلاء حتى تظهر أنوار المعارف والآداب ، كما حذر الشباب وخصوصًا أبناء الذوات من الإسراف والانهماك فى شرب الخمر ولعب الميسر ، وضرب مثلاً بالسكارى لعل بعضهم يقتدى به ويسير حذوه فتحدث عن إقلاع أحد المدمنين عن شرب الخمر فوفر مالا بنى به بيتًا " بدلاً من اللى كان بيروح منه كل شهر ١٢ جنيهًا كانوا بيروحوا فى طريق الشيطان الرجيم ، وخذ من التل يختل "١١-وعن إباحة الزنا والأضرار الاجتماعية التى تحدث من ذلك انتقد النديم حرية إباحة الزنا فذكر أنها لا توافق تقاليد أهل الشرق ولا أديانهم كما قال : اتفق المسلمون والنصارى وإليهود والمجوس على الغيرة على النساء وصيانتهن وأجمعوا على تحريم الزنا وقبحه " .

وهاجم قانون الكشف على البغايا بمعرفة أطباء الحكومة وإعطائهن شهادات بأنهن صالحات للزنا فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوارة . وتكلم النديم عن البيوت السرية فقال إنها " ليست سرية بل معلومة ولا تخفى على رجال الضبط والربط " وطالب أن تكون هذه البيوت بعيدة عن بيوت الناس الطيبين دفعًا للشبهات .

كما تحدث عن تضليل المفسدين لعقول الشباب للانغماس فى هذه الموبقات حتى يفسدوا المجتمع ويقضوا على قيمه وأخلاقياته فكتب تحت عنوان "مجلس طبى لمصاب بالإفرنجى" مقالاً صور فيه أحد المفسدين ادعى أنه من الأتقياء وتسلل إلى شاب مستقيم الحال صحيح الجسم معتز بنفسه حتى أوقعه فى مهاوى الرذيلة فأصيب بالداء الإفرنجى (يقصد مرض الزهرى) حتى بهت لونه وتمكن الداء منه .

١٢- كما هاجم النديم تقليد بعض النساء المصريات للأجنبيات فى شرب الخمر والتشدق باستخدام كلمات أجنبية خلال الحديث بالعربية ولبس الضيق والمحبوك من الثياب الإفرنجية والانهماك فى الملذات والشهوات والاستهتار بالدين والوطنية ، واتهم الأوربيين بأنهم وراء هذه المفاسد حتى يضمحل الشرق وتنحل أخلاق أبنائه وينتشر الفساد وقبيح العادات ، حيث إن الأوربيين لم يرعوا حرمة أى شىء ، وقد كان النديم فى ذلك معبرًا عن رأى كثير من الأهالى ، والدليل على ذلك الشكوى المقدمة من سكان وأصحاب أملاك بشياخة رفاعى محمد التابعة لقسم اللبان إلى مجلس بلدى الإسكندرية حيث يتضح منها شكوى الناس بقولهم توجد أماكن " مؤجرة إلى مومسات محدقين بمنازلنا من كل الجهات وحيث إنه موجود

أيضًا مسجدان للعبادة أحدهما لأولاد منصور الفحام المشهور والآخر تعلق الشيخ عرفه العطن، وكان سبق منا تقديم جملة عرض حالات للمحافظة والداخلية بهذا الخصوص، وسعادة محافظنا أمر بنقل المومسات الوطنيات إلى النقط المعدة لهن، ولم يبق الآن غير هؤلاء الأجانب يجولون فى الشوارع والأزقة أمام منازلنا متهتكات لا يعتنون بوعظ واعظ. وحيث إن وجود تلك العواهر بهذه النقطة المهمة مخل للآداب وعلى غير السير الانتظامى خصوصًا لقربهم من محلات العبادة فلا يمر عليهن أحد فى الطريق الموصل لأحد المساجد المذكورة أو لمنزله إلا ابتدره تلك النسوة ودعونه لفعل الفاحشة. وبهذا السبب منعت إقامة الشعائر الدينية بتلك المساجد وهجرت". كما يذكر أصحاب هذه الشكوى أيضًا أنه يوجد بزقاق المساجد المذكورة قهاوى الحشيش والخمامير والكرخانات معًا" ويتساءلون بقولهم هل القوانين العادلة وغير العادلة تصرح بغلق أبواب المساجد وفتح أبواب المفاسد؟ ثم يلتمسون من أولى الأمر خروج تلك النسوة من هذه الجهة التى بها مساكن الأحرار ومحلات العبادة المقدسة ' حفظًا للآداب وصيانة الأعراض وراحة السكان ' .

وهناك شكوى أخرى قدمها أهالى طنطا ضد سيدة فرنسية افتتحت منزلاً للدعارة على شكل فندق فى مكان مأهول

بالسكان ومع ذلك لم تستطع المحكمة اتخاذ أى إجراء لحماية الأهالى لكون لائحة المومسات التى صدرت فى يوليو ١٨٨٥ لا تشمل الأجنبيات . لقد علق أحد النبهاء بمجلة " الأستاذ " على أحوال البلاد فى ذلك الوقت بقوله : " إن حالتنا الحاضرة تشبه عليلاً مصابًا بمرض باطنى وقد قصد دجالاً فأعطاه دواءً قابضًا فأصبح يشكو مرضين ، وهذا ينطبق على أحوالنا ؛ فإننا بدلاً من معالجة أمراضنا القديمة بأنوار التمدن فقد زدنا عليها كافة الرذائل وكفانا برهانًا .

وهكذا تناول النديم الآفات الاجتماعية التى لحقت بالمجتمع المصرى بأسلوب مؤلم لم يتملق فيه أحدًا بل استخدم أسلوب التبكيت حيث كان لازمًا للإيقاظ والإنهاض لأن الإصلاح لا يأتى إلا من فهم الناس لأخطائهم وتوضيح الأسباب التى أدت إلى تخلفهم والوسائل المعينة على العلاج ، لذلك كانت دعوته قوية وخصوصًا أنه اتخذ من الدين طريقًا لتنبيه الناس نحو إصلاح مجتمعهم فأوضح أن أسباب هذه العلل هى جهل الناس بأصول دينهم وعدم إذعانهم لعقائده وأحكامه وأنه ليس هناك وسيلة لمكافحة هذه الآفات أفضل من الرجوع إلى الدين .

كما تبنى النديم أسلوب النقد العنيف ضد الأوربيين بسبب ما جلبوه على البلاد من مفاسد ، وقد تميزت مقالاته بأنها لم تكن

كلها مجرد زجر ونواه مما قد يبعث على الملل ، بل اتخذ أكثرها شكل محادثة لطيفة تتميز بالواقعية .

موقف النديم من العدالة الاجتماعية :

قسم النديم المصريين إلى ثلاثة أقسام : فقراء ، وأغنياء ، وأمراء ، وطالب بأن يسود بينهم العدل والمساواة حتى يتقدم المجتمع ، لأن الإنسان ما لم يشعر بقيمته وتقدير المجتمع له فلن يكون منتجًا ، وذكر بأنه لن يتحقق ذلك إلا إذا ساعد الغنى الفقير والقوى الضعيف ، فالقانون الإلهى يسوى بين الأمير والحقير والقوى والضعيف ويحكم بمسئولية كل فرد من الأفراد عن أقواله وأفعاله بين يدى مولاه يوم يبعثه فى النشأة الآخرة .

ترجم النديم عما يدور بخواطر أبناء وطنه وطالب بإنصاف الفقراء من الأغنياء وهاجم الذين يستعبدون الفقراء من الأغنياء وطالب بتخليصهم من قسوتهم فقال : " إنهم يرون أن الفقراء خلقوا لخدمتهم ومدحهم ، وأن الله فرض عليهم حب الأغنياء ، وتعظيم ذوى الهيئات ، وإن كانوا من المجرمين لا يحسنون الظن بالفقير ، ولا يسمعون منه كلامًا وإن كان حقًا ، ولا يعترفون له بفضل وإن كان عالمًا بما جبلوا عليه من عداوة الفقراء " ، ثم ندد ببذخ الأغنياء وترفهم بينما الفقراء لا يجدون ما يسدون به رمقهم فقال : " أليس الرجل منكم كالرجل منا فما بالكم لا

ترضون بثلاثين صنفًا من الطعام ونرضى بالخبز والملح، ولا تقنعون بألوف من الجنيهات ونقتنع بالقرش الواحد. أخُلقتم من الذهب وخُلقنا من التراب أم ولدتم قابضين على أزمة الدنيا وولدنا عبيدًا لكم، أم نزلتم من السماء، ونزلنا من بطون الأمهات". كما حذرهم من أن غالبية الشعب من الفقراء وأنهم قلة فقال: "ألا ترون أنكم تعدون على الأصابع فى بلادنا والفقراء هم الأمة".

وفى رواية "الوطن وطالع التوفيق" تحدث النديم عن عدم اهتمام الأغنياء بمصلحة البلاد وانكبابهم على التفاخر والتباهى بما لديهم من ثروة فقال: "الأغنياء مقتصرون على استخدام الفقراء والهدوم النظيفة والمآكل والمشارب، وإذا اجتمعوا يفتخرون بالطباخين والجوارى والخدامين والبيوت"، ثم خاطب ضمائر الأغنياء مؤنبًا لهم على ترك الفقراء يتضورون جوعًا بينما هم يجلسون أمام الموائد الحافلة بصنوف الطعام والفقراء ينتفضون من شدة البرد وقلة الغطاء بينما هم ينامون على الفراش اللين والوثير فقال: 'أيها الفرح بما ملكت يداه ما أحزنك لو تأملت المضطر يتضور جوعًا والبائس ينتفض بردًا والغريب لا مأوى له يستكن فيه واليتيم لا قيم له يرشده ويعلمه والمريض المعدم لا مال له يطبب به نفسه ولا متاع يبيعه لينفقه فى حفظ

حياته أُفٌ لك ولمالك" . ونصحهم بأن ما يصرفونه فى الملاهى الليلية يمكن صرفه على الأيتام والفقراء فيستقيم حال المجتمع فقال : "إن أحدكم يصرف فى الملاهى عشرة آلاف جنيه فى كل عام ولو مال بتربية الأيتام لربى بها مائة يتيم" ، ثم وصف الأطعمة الفاخرة التى يتناولها الأغنياء يوميًا فقال إنها تشمل "خمسة أصناف أو ستة ، يتداولون فيها الصحون المحمرة والكباب والكفتة وكباب الفرن بينما لا يتناول الفلاح سوى صنف واحد يطبخ كل ليلة من عدس أو كشك أو بصارة أو فول أو دشيشة " وفى وجبة الغذاء يكون طعامهم " مش أو جبن أو كرات أو فجل أو مخلل " . كما انتقد النديم تعامل الأغنياء مع الأجانب والغرباء بينما لا يتعاملون مع أبناء البلاد من الفقراء بينما يتركونهم يتضورون جوعًا فقال : " ألا يخجل(الغنى) إذا أعطى الغريب الدرهم وجاره يموت جوعًا ، وهو لا يشعر ما هذه الحياة التى تنسى بموت صاحبها " .

كما طالب الفقراء بتكوين عصبية لمواجهة الأغنياء ثم حذر الغنى من غضب الفقير عليه فقال : " أنت تحيى الكثير من غير أهلك وتتلذذ بشهواتك وأنت تنغص حياة الألوف . . فبؤت بغضب الأمة وسخط البلاد " .

رأى النديم فى فقراء المصريين دعامة للثورة لأنهم أصل كل

شيء وأن الأغنياء لا يفيقون من غفلتهم إلا إذا حركهم الفقراء، وبدأوا بأنفسهم فى الإصلاح حيث هم عميان عن طريق التقدم إلا بمرشد والمرشد هم الفقراء . لقد خرج النديم من طابور الفقراء، وعاش فى قلة من العيش وكان سعيدا بذلك ويتضح ذلك من قوله : "أما اللذة المقصودة بالشهرة فإنها ظاهرة فى سرير نومى الحديدى الخشن وسترتى الوحيدة القديمة" . ولم يرث النديم أى مال أو جاه من أبيه الخباز الفقير بل عاش عيشة عريضة واختلط خلالها بطبقات المجتمع الدنيا فاختلط بالفلاحين ورأى بؤسهم، كما رأى الأغنياء يستغلون الفقراء فى مجتمع استغلاله يمحق إنسانية الإنسان .

هكذا تعايشت الثورة السياسية مع الثورة الاجتماعية فى حدود إمكانات العصر ومفاهيمه، وهكذا نبه النديم أغنياء عصره إلى خطورة إهمالهم لإصلاح حال الوطن وأبنائه من الفقراء مبينًا لهم أن الحياة ليست التباهى بكثرة الأموال والحشم والخدم، بل بالدور الاجتماعى الذى يقومون به لخدمة مجتمعهم .